

## المسألة اليهودية ديستونسكى

كتب ديستونسكى فى يومياته التى سجلها ١٨٧٧ ، رسائل جاءت من بعض اليهود فى روسيا ، وردوده عليها ، ورؤيته للمسألة اليهودية ، فنقتطف بعضها فيما يلى :

### الرسالة الأولى

... على أننى أعتزم التطرق إلى موضوع لا يتيسر لى تفسيره مطلقاً ، إنه مقتك للجبيد \* الذى يتجلى فى كل عدد ينشر من يومياتك تقريباً. ليقنى أعرف لماذا تتصدى للجبيد ولا تنبرى للفرد ممارس الاستغلال بوجه عام ؟ إننى - شأنك - لا أطيق المعتقدات البالية لأمتى - فقد عانيت منها ما عانيت - لكننى لا أتفق وإياك إطلاقاً فى أن الاستغلال السافل يجرى فى دماء هذه الأمة .

هل يُعقل أنك تعجز عن الارتقاء إلى القانون الأساسى لكل حياة اجتماعية ، وهو أن كل رعايا الدولة الواحدة بون استثناء ، إذا كانوا يتحملون كل الواجبات والفرائض اللازمة لوجود الدولة ، يجب أن يتمتعوا بكل الحقوق والفوائد الناجمة عن وجودها ، وأن كل الخارجين على القانون ، كل العناصر الضارة فى المجتمع يجب أن تنال نفس القدر من العقوبات المتكافئة بالنسبة للجميع ؟ بم يمتاز استغلال الأجانب - واليهود من رعايا روسيا على أية حال - على الاستغلال الجبدي ؟ فبم يكون الإقطاعيون والمستثمرون ومصاصو الدماء والقساوسة الأرثوذكس الروس الذين تزخربهم روسيا بأسرها خيراً من أولئك الجبيد الذين يمارسون نشاطهم داخل نطاق محدود \*\* . بمقنورى أن أطرح ألوفاً من الأسئلة المائة . فيما نجدك تتحدث عن الجبيد ، إنما تدرج ضمن هذا المفهوم

\* الجبيد : كلمة قديمة فى الروسية تعنى اليهودى . وفيها شئ من اللمز .

\*\* المناطق التى حُدثت إقامة اليهود فيها ، فى روسيا القيصرية .

كل الجمهور المريع فى يؤسه وشقائه ، وهم أنقى خلقيا لا من سائر الأقسام فحسب ، بل ومن الشعب الروسى الذى تبجله . كما تقحم فى هذه التسمية حتى ذلك الرعيل المجيد من اليهود الذين نالوا التحصيل العالى وبرزوا فى جميع معتركات الحياة الرسمية ، ممن يعملون لما فيه خير المجتمع والبشرية . إن بغضك للجديد ينسحب حتى على دزرائيلى الذى لا يعدم أن يجهل هو نفسه حقيقة كونه سليل اليهود والإسبان ، وهو الذى لا يدير طبعاً دفة السياسة الإنجليزية المحافظة من وجهة نظر الجديد .

كلا للأسف أنت لا تعرف الشعب اليهودى ، ولاحياته ولا روحيته كما لا تعرف - أخيراً - قرون تاريخه الأربعين . أقول للأسف ، لأنك إنسان صادق حقاً ونزيه كل النزاهة ، على أنك تلحق - دون وعى أو قصد - ضرراً بجماهير غفيرة من شعب مبتل بالتعاسة . أما الجديد الأقوياء الذين يستقبلون دهاقنة العالم فى صالوناتهم ، فلا يخشون الصحافة - بالطبع ولا حتى السخط العاجز لضحايا الاستغلال - ولكن كفانا حديثاً ، فلن أفلح فى إقناعك برأى ، لكن أتوق جداً أن تقوم أنت بإقناعى .

#### رد ديستوفسكى

هذه الأسطر كتبها شخص متعلم وموهوب فعلاً - رغم أننى لا أعتقد أنه براء من الترسبات الموروثة - فأنى مشاعر تجاه الفرد الروسى يمكن انتظارها إذن من اليهود غير المتعلمين وهم بهذه الكثرة ؟

قولى هذا ليس اتهاماً ، فتلك مسألة طبيعية . أود فقط القول أن المسئول عن دوافع حالة العزلة والفرق مع اليهود قد لا يكون هو الشعب الروسى وحده ، بل إن هذه الدوافع تراكمت بالقطع من الطرفين ، كما لا يعلم أحد بعد أى الطرفين أكثر ذنباً . إثر هذا القول أود الإدلاء ببعض التصورات لأثبت براعتى .

لنفترض أن من العسير جداً الإحاطة بأربعين قرناً من تاريخ سلالة كاليهود ، لكننى أقول من باب الحيطة : إننى أعلم حق العلم أن ما من شعب آخر فى هذا العالم يفرط من الشكوى من نصيبه والتظلم من هوانه وتعاسته وعذابه فى كل لحظة ، وفى كل خطوة يخطوها ، أو كلمة يتفوه بها . ماوجه المصيبة فى أنهم لا يحكمون أوروبا ولايديرون بورصاتها - ولو البورصات فقط -

أى بالتالى سياسة دولها وأخلاقياتها وشنونها الداخلية . أنا مستعد للتصديق بأن  
دزرائيلى نفسه ربما نسى أنه سلسيل الجييد الإسبان - أُرْجَحُ أنه لم ينس ذلك - أما أنه  
كان يدير دفة السياسة الإنجليزية من وجهة نظر الجييد - بقدر ما خلال السنة الأخيرة ،  
فتلك - لعمري - مسألة لا يرقى إليها الشك .

عندى أن القروى الروسى ، بل والإنسان الروسى البسيط ينوء بما يكاد يفوق أعباء  
الفرد اليهودى .

يقول مراسلى فى رسالة أخرى :

قبل كل شئ ، لابد من أن يُمنحوا ( أى اليهود ) كل الحقوق المدنية - تصور أنهم  
مازالوا محرومين من أبرز حق لهم ، ألا وهو حرية اختيار محل الإقامة ، الأمر الذى  
تترتب عليه سلسلة كاملة من المضايقات - إسوة بسائر الأقوام الغربية فى روسيا ، بعدئذ  
يمكن مطالبتهم بأداء واجباتهم تجاه الدولة والسكان الأصليين .

رد ديستوفسكى

تصور فقط أيها السيد المرسل أن الفرد اليهودى حين - عانى من غياب حرية  
اختيار محل الإقامة - كان ثم ثلاثة وعشرين مليوناً من الروس الكادحين يعانون أوضاع  
القنائة ، وهو أدهى وأمر من اختيار محل الإقامة . هل أشفق اليهود عليهم ؟ لا أعتقد .  
بوسعكم الحصول على جواب شافى عن هذا السؤال فى جنوب روسيا وفى إقليمها  
الغربى . كلاب كانوا - كما يفعلون الآن تماماً - يندبون حقوقاً لم ينلها الشعب الروسى  
نفسه . ودأبوا على العويل والشكوى أنهم مظلومون ومعذبون .

ولكن ها قد جاء المنقذ وحرر الشعب الأسمى ، فماذا كانت النتيجة ؟ من بادر إلى  
الانقضااض عليه كمن ينقض على فريسة ؟ من قيده بأغلال حرفته الأزلية ؟ حرفة  
الاستحواذ على الذهب ؟

قرأت توأ فى عدد آذار من « بشير أوروبا » ما يفيد أن اليهود فى الولايات  
الجنوبية من أمريكا قد انقضوا بكل ثقلهم على الملايين الكثيرة من الزنوج المعتوقين ،  
واستحوذوا عليهم بأساليبهم الخاصة ، بحرفتهم الأزلية المعروفة ، مفتنمين نقائص  
الجمهور المسحوق وقلة خبرته . ما أن قرأت هذا النبأ حتى تذكرت أن هذه الفكرة خطرت

لى قبل سنوات خمس . وقتئذ قلت لنفسى : عند تحرر الزوج من ربة ملاك الرقيق ، لن يُقيض لهم الافلات ، فسوف ينقض على هذه الضحية الطازجة اليهود . إن هؤلاء الزوج كئز لا يعرض بالنسبة لليهود ، فهل سيفوتون الفرصة ؟ وما قد صدقت توقعاتى . قبل عشرة أيام اطلعت فى « الأزمنة الحديثة » العدد ٢٧١ ، على رسالة من كوفنو تنطوى على دلالات بليغة . جاء فى الرسالة : إنقض اليهود على سكان ليتوانيا . هب المتنورون من الاقتصاديين المحليين وطفقوا يؤسسون المصارف الريفية لإنقاذ الشعب من براثن المرابين اليهود ، ويفتحون أسواقاً ريفية كى يتسنى للجمهور المسكين الكادح الحصول على الضروريات بالأسعار الفعلية ، لا بتلك التى يحددها اليهود .

أنا لا أقدم هذين الجزئين من « بشير أوروبا » ، « الأزمنة الحديثة » على أنهما من الوقائع الحاسمة والعظيمة الشأن . فلئن بوشر بتدوين تاريخ هذه الطائفة العالمية ، فلسوف يتسنى فوراً وضع اليد على مائة ألف من القرائن ، بل وأكثر من تلك خطورة .

بديهى أنهم « اليهود » سيرون أن الجميع يغفلون بغضاً ، وبالتالي فالجميع يكذبون . لا يُعدم - طبعا - أن يكذب الجميع دون « استثناء » ، على أن سؤالاً آخر ينبثق فوراً : إذا كان الجميع دون استثناء يكذبون ، والجميع يغفلون بغضاً ، فلا بد لهذا من منشأ !

إن أبناء شعبنا البسطاء لا يضمرون أى بغض دينى مبيت سلفاً لليهود ، لقد لمست ذلك طوال خمسين عاماً ، حيث قُيُض لى أن أعايش الشعب وأشاطره المكوث فى السجون والنوم على الأسرة الخشبية . كان بيننا نفر من اليهود لم أر أحداً يحتقرهم أو يتحاشاهم أو يطردهم . ولكن ماذا رأيت ؟ هؤلاء اليهود كانوا يتحاشون الاختلاط بالروس ويرفضون تناول الطعام معهم ويعاملونهم ببعض الاستعلاء ، وأين يجرى هذا ؟ فى السجن !

فيما أسرح - أنا أحياناً فى الخيال : ماذا لو كان الروس - لا اليهود - ثلاثة ملايين نسمة فى روسيا ، واليهود ٨٠ مليون ؟

ما سيؤول إليه مصير الروس بين ظهرانئهم ؟ ... هل ... هل ... هل ...

هل كانوا سيسلخون جلودهم ويسومونهم سوء العذاب حتى يمحوهم ، حتى يببدهوم عن بكرة أبيهم ، كما كانوا يفعلون بالأقوام الأخرى فى العصور الغابرة من تاريخهم العريق ؟

يتحدث بعد ذلك ديستوفسكى عن اليهود ، وكيف أنهم فى كل دولة خطوا فيها ،  
أقاموا دولة فى الدولة :

بوسعنا أن نتصور بعضاً من ملامح هذه « الدولة فى الدولة » الانعزال والانطواء  
على صعيد المعتقدات الدينية المتحجرة ، الانغلاق والإيمان بأن ليس ثمة شخصية أدمية  
سوى الفرد اليهودى . أما الآخرون - وإن كان لهم وجود ، فينبغى - رغم ذلك - تجاهل  
هذا الوجود : « تنح عن الشعوب وكون هويتك الخاصة ، وأعلم أنك منذ  
الآن الوحيد لدى الرب ، أما الآخرون ، فافتك بهم أو اجعلهم  
عبداً ، أو سخرهم . أمن بالنصر على العالم أجمع ، أمن بأن كل  
شئ سيرضخ لك . كن صارماً فى ازدياء الجميع » .

هذا هو جوهر فكرة « الدولة فى الدولة » ، ثم هناك بالطبع قوانين داخلية ، وربما  
سرية تصون هذه الفكرة .

إن مجمل نشاط اليهود فى هذه الديار ، توريث السكان الأصليين - قدر  
المستطاع - فى تبعية لهم ، منتفعين من القوانين المحلية . وهم يتقنون باستمرار  
عقد عرى الصداقة مع من تتوقف عليه مصائر الشعب .

إن المسيحية وفكرتها انهارت وتنهار هناك ( فى أوروبا ) ، لايسعنا إلا أن نشير  
إلى الانتصار القومى الذى حققه اليهود فى أوروبا أيضاً ، حيث أحلوا أفكارهم محل  
الكثير من الأفكار القديمة . صحيح أن الإنسان كان يبجل المادة مدى الدهر ، ويميل إلى  
رؤية الحرية وفهمها متمثلة حصراً فى النقود التى ادخرها بكل قواه واحتاط لها بشتى  
السبل ، ولكن لم يسبق لهذه الأطماع أن صورت بمثل هذه الصراحة ، ويمثل هذا الوعظ  
بأنها المبدأ الأسمى ، كما جرى فى قرننا التاسع عشر . صحيح أن هذا كان موجوداً  
فى الماضى . وباستمرار طبعاً ، بيد أن أحداً لم يرفع هذه الأمور إلى مستوى العلم  
والحقيقة السامية ، كما أن المسيحية شجبتها . أما الآن ، فعلى العكس إنها ترفع إلى  
مصاف الفضيلة . إذن ليس اعتباطاً أن يستولى اليهود هناك على البورصات فى كل  
مكان ، ليس اعتباطاً أن يتحكموا برؤوس الأموال ، ليس اعتباطاً أن يكونوا أرباب  
القروض ، وأكرر ليس اعتباطاً أن يكونوا أيضاً أرباب السياسة الدولية برمتها .

أما الذى سيحدث فى المستقبل ، فهو أمر معلوم ، بالطبع ، لدى اليهود أنفسهم ، وهو أن سلطانهم يقترب ، سلطانهم المطلق .

اليهودى يهوى المتاجرة بمجهود الآخرين ! لكن كل هذا لا يغير شيئا بعد ، فى حين يبسط وجهاء اليهود سلطانهم على البشرية ، وبمزيد من الشدة والرسوخ ، ويسعون لإضفاء هويتهم وجوهرهم على العالم ، فيما يستمر اليهود بالصراخ : إن ثمة أناسا طبيين بيننا . أعوذ بالله ! هل هذا هو صلب الموضوع ؟ نحن لم نعد نتحدث عن الناس الطبيين والسيئين . أفلا يوجد بين الآخرين أناس طبيون ؟ نحن نتحدث عن عموم الموضوع وفكرته . نحن نتحدث عن الجيادية والفكرة الجيادية التى تجتاح العالم بأسره عوضاً عن المسيحية الخائبة .

\* \* \*

بعد هذه المقتطفات من يوميات ديستوفسكى ، نذكر فقط أنه سجلها عام ١٨٧٧ !